جهود الدولة الأموية لنشر الإسلام في موريتانيا

د. الناني ولد الحسين
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

لم يقف البعد الجغرافي ولا صعوبة المواصلات وما يترتب عنهما من شح في المعلومات، أمام جهود الدولة الأموية في صدر الإسلام لنشر الدين الإسلامي في موريتانيا، فعندما اعترض بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) خط سير جيش الفتح الإسلامي للمغرب، لم يكن أمام الفاتحين سوى التوجه شمالا أو جنوبا، وكان الجنوب أكثر إغراء في بداية الأمر إذ كان سكانه امتدادا لسكان المغرب الذين تعرف الفاتحون عليهم وعلى أساليبهم في الحرب ولم تكن تواجههم فيه حواجز مائية تتطلب النزول عن صهوات خيولهم إلى مراكب البحر، لكنهم اصطدموا ببحار من الرمال خلف السوس الأقصى لم يكن اجتيازها أسهل من عبور البوغاز، فتحول الاهتمام الأكبر إلى الشمال وعبور البحر الأبيض المتوسط عبر المضيق الذي حمل منذئذ اسم مضيق جبل طارق وتم فتح الأندلس من دون إن يتم إهمال الجنوب نهائيا أو يتم إلغاء الجهود الموجهة لنشر الإسلام في موريتانيا وبلاد السودان، لكن الأمر تطلب، فيما يبدو، مراجعة بغرض التكيف مع الظروف.

وهكذا لم يغب الاهتمام بفتح موريتانيا ونشر الإسلام بين سكانها عن حسابات ولاة الدولة الأموية في المغرب منذ وصول جيوشها إلى السوس الأقصى بقيادة عقبة بن نافع الذي عقد له أخوه لأمه عمرو بن العاص على رأس جيش كلفه بفتح بلاد المغرب بعد أن استأذن معاوية بن أبي سفيان، فأذن له بذلك. وفي هذا الإطار، تم فتح إفريقية على يد عقبة بن نافع وأسس بها مدينة القيروان ثم اتخذها عاصمة له؛ لكن معاوية لم يلبث أن عزله عن ولاية المغرب، غير أن يزيد بن معاوية سرعان ما أعاده لمنصبه عام 62هـ[1]، فانطلق زاحفا بجيشه إلى أن وصل طنجة، وتوجه منها صوب الجنوب بنصيحة من يليان أمير غمارة حتى تجاوز السوس الأقصى واصطدم ببعض

[1] عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، نشر كتاب الشعب، القاهرة، د. ت. ج4، الترجمة رقم 3716، ص. ص. 59 – 60.

المجموعات القبلية التي توجد لها امتدادات في البلاد الصحراوية الموريتانية فطاردها داخل الصحراء.

وغير خاف أن سياسة عقبه هذه، شكلت أحد العناصر الأساسية في توجهات بعض ولاة الدولة الأموية بالمغرب، حيث تابعوا . من بعده . اهتمامهم بنشر الإسلام في هذه البلاد عن طريق الحملات العسكرية أولا ثم بواسطة الطرق السلمية.

1 – الجهود العسكرية

تفرض الظروف الطبيعية القاسية على الفاتحين خلال تلك الفترة من التاريخ ترتيبات صعبة إن هم أرادوا إرسال جيش لإخضاع ما وراء السوس الأقصى جنوبا، فطبيعة المنطقة الصحراوية لا تسمح بوجود مسالك واضحة تهتدي بها الجيوش إلى مبتغاها، كما أن ضعف الكثافة السكانية في هذه المنطقة وغياب المدن في أجزاء كبيرة منها وندرة المياه في أرجائها وتعذر الاهتداء إلى ما هو موجود منها على غير السكان المحليين، من بين الأمور التي وقفت في وجه تسيير جيوش كبيرة لفتح موريتانيا وما وراءها من بلاد السودان.

فلم يبق أمام ولاة بني أمية في المغرب من خيار، أمام هذه الوضعية، سوى توجيه حملات محدودة العدد يمكنها اقتصاد الزاد من الماء والغذاء أثناء عبورها للصحراء ذهابا وإيابا على أن تقوم بعمليات سريعة تهدف أساسا إلى استكشاف المنطقة وإشعار سكانها بوجود الدين الجديد ووجود الدولة الإسلامية على الثغور الشمالية لبلادهم؛ ولم يكن بمقدور هذه الحملات أن تبقى فترة طويلة في مناطق عملياتها مخافة أن يتجمع السكان أو غالبيتهم لمواجهتها، في الوقت الذي لم يكن حجمها العددي وانقطاعها عن المدد يخولانها المخاطرة بخوض مواجهات طويلة الأمد، ومن بين أهم الحملات العسكرية التي وجهها ولاة بني أمية في المغرب إلى ما يعرف اليوم بموريتانيا:

أ – في عهد ولاية عقبة بن نافع الثانية

يختلف الباحثون حول تحديد آخر نقطة وصل إليها عقبة بن نافع جنوبا، مع أن غالبيتهم تؤكد على أنه لم يتجاوز السوس الأقصى جنوبا، لكن حدود السوس الأقصى ظلت حتى عهد قريب غامضة في كتابات المؤلفين المشارقة الذين يشكلون أساس مصادرنا حول الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فقد أضاف مرتضى الزبيدي مثلا مدينة شنقيط إلى منطقة السوس الأقصى أثناء تعريفه بهذه المدينة فقال: "شنجيط بالكسر مدينة من أعمال السوس الأقصى بالمغرب"[1] وذلك على الرغم من صلات الزبيدي الواسعة بحجاج بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي الذين كانوا يعتقدون أن من حج ولم يزر الزبيدي ولم يصله بشيء فإن حجه ناقص[2]، فكيف بالجيل الأول من المؤلفين الذين كانت معلوماتهم حول هذه المنطقة ضبابية.

ومن بين الشهادات التي وصلتنا وتفيد بوصول عقبة إلى مشارف المجال الموريتاني ما ذكره ابن عبد الحكم أثناء حديثه عن فتوحات هذا القائد عندما تعرض لحركة جيشه في السوس الأقصى، فقال: "وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية، فجول في أرضهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله، فانصرف إلى إفريقية"[3]، ويرفع اليعقوبي اللبس عن من أسماهم ابن عبد الحكم بأنبية، فيبين أنهم يسكنون في عمق الصحراء الواقعة جنوب السوس الأقصى وأن حدود بلادهم تتجاوز جنوبا مدينة أودغست التي كانت مقر إقامة ملوكهم، ويقول: " ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد أرض السودان من سائر بطون السودان يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة، ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا، ثم

---

[1] مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1987، مادة (الشقيط)، ومادة (شنكت)، نقلا عن الشيخ سيدي بابه ولد الشيخ سيدي (ت. 1342هـ)، إمارتا إدوعيش ومشظوف، دراسة وتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، ط2، المعهد التربوي الوطني – شركة الكتب الإسلامية، نواكشوط، 1994 ، ص. 189.

[2] خير الدين الزركلي، الأعلام، 8ج، ط16، دار العلم للملايين، بيروت، 2005، ج7، ص. 70. وكذلك أغناطيوس يوليانوفيتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص. ص. 855 – 858.

[3] عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص. 58.

يسير إلى بلد يقال له غسط، وهو واد عامر فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له ولا شريعة يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة"[1].

أما مؤلفو المغرب، وإن كانوا متأخرين عن الأحداث التي كتبوا عنها، فإن معرفتهم بالأرض وسكانها كانت أحسن من سابقيهم، وتفيد شهادات بعضهم في هذا السياق أن عقبة طارد الملثمين من وراء السوس، فقد كتب ابن خلدون مثلا عن فتوحات عقبة يقول: "قاتل مسوفة من وراء السوس وسبى منهم وقفل راجعا"[2] ويضيف ابن عذارى أن عقبة وصل أثناء مطارداته لبعض قبائل جنوب المغرب إلى "موضع يقال له أطار فوجد فيه أقواما فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب"[3]، ويمكن أن نستنتج من خلال هذه الشهادة أن مطاردات عقبة لمسوفة من وراء السوس قد قادته إلى آدرار الموريتاني، الذي يوجد به موضع يحمل اسم أطار أسست به منذ الثلث الأول من القرن 17م مدينة تحمل هي الأخرى نفس التسمية وهي اليوم إحدى المدن الرئيسية في موريتانيا، خاصة أن ابن عذارى أضاف نقلا عن ابن عبد البر أن عقبة تجاوز الصحراء جنوبا إلى أن فتح جزءا من بلاد السودان، فقال: " قال ابن عبد البر فتح عقبة عامة بلاد البربر إلى أن بلغ طنجة وجال هنالك ولا يقاتله أحد ولا يعارضه حتى فتح كورة من كور السودان"[4].

ولا تشكل إفادة ابن عذارى، المتعلقة بتجاوز عقبة للصحراء جنوبا، استثناءا، بل إن هنالك شهادات أخرى تدعمه من بينها مثلا تلك التي أوردها مؤلف أندلسي، تتمتع كتاباته عن الصحراء وبلاد السودان بمصداقية كبيرة، ونقصد البكري الذي تحدث عن جيش ذكر أن الدولة الأموية بعثت

---

[1] أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، 1957، ص.111.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968، المجلد 6. ص. 213.

[3] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4ج، تحقيق د. إحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص. 28.

[4] نفس المصدر ونفس الصفحة.

به في صدر الإسلام لفتح غانة، فكتب يقول:" وببلاد غانة قوم يسمون الهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجوه، وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان"[1].

ولعل قصد البكري من وراء تحديد الفترة الزمنية (صدر الإسلام) التي بعثت خلالها الدولة الأموية هذا الجيش لنشر الإسلام في إمبراطورية غانة هو أن هذا الحدث وقع في بداية قيام هذه الدولة أي في عهد خليفتها الأول أو الثاني. وإذا عتبرنا مصداقية هذه الرواية، فإن مفادها ينطبق لا محالة على جيش عقبة، الذي انتدب لفتح المغرب في ولايته الأولى أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان، ثم تم اختياره لولاية ثانية على المغرب في عهد يزيد بن معاوية. وقد يكون من بين الأسباب التي حالت دون قيام هذا الجيش بالمهمة التي أسندت إليه وعدم عودة أي واحد من جناحيه (الهنيهين في حوض نهر النيجر والفامان في حوض نهر السنغال) إلى قواعده في الشمال، علم قادته بمقتل عقبة وصحبه في تهودة.

والراجح لدينا، أن عقبة أمر بعض قادته أثناء مطاردته لمسوفة في الصحراء وعلى مشارف بلاد السودان بمواصلة السير في اتجاه غانة التي ربما يكون قد علم بما هي عليه من وثنية أثناء توغله في الصحراء، بينما عاد هو سالكا طريقه إلى القيروان في قلة من قومه بعد أن فرق جيشه، ربما كلف كل فرقة منه بمهام فيما تركه خلفه من بلاد المغرب، فلم يعد قادة جيش غانة قادرين على العودة مع جنودهم إلى الشمال بسبب الانتفاضة التي حدثت هنالك والتي هددت الوجود العربي الإسلامي في بلاد المغرب.

---

[1] أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري: المسالك والممالك، 2ج، حققه ووضع فهارسه الدكتور جمال طلبة، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ج2، ص. 367.

ونعتقد أن هذا الجيش لم تكن لديه أيضا القدرة على الدخول في حرب طويلة ضد غانة أو غيرها من الممالك السودانية، بسبب انقطاع الأمل في التوصل بمدد من الشمال، وأن قبائل مسوفة التي قد يكون بعض بطونها دخل الإسلام شكليا وكان الجيش يعتمد عليها في القتال إلى جانبه وللدلالة في تنقلاته داخل الصحراء قد تخلت عن مؤازرته ولم تعد مستعدة حتى لإرشاده على المسالك ونقاط المياه في حالة ما إذا قرر المجازفة بالعودة إلى حيث أتى، فقرر القادة التريث حتى تتضح الأمور.

وبمرور الزمن تخلى أحفاد هذا الجيش عن دينهم بسبب عزلتهم لفترة طويلة في محيط وثني وخلال عصر لم يكن من السهل فيه أن يقبل القوي إيواء من يختلف عنه في المعتقد، لكن ذرية هذا الجيش حافظت على تميزها بفضل ما عرف عن جيوش الفتح وقتها من مصاحبة الجنود لزوجاتهم مما جعلهم "لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم"[1]. ومن المحتمل أن يكون السبب في إحجامهم عن مخالطة السكان المحليين ومصاهرتهم هو التزامهم في بداية أمرهم بالدين الإسلامي الذي يمنع زواج معتنقيه من الوثنيين، ثم تحول الأمر إلى عادة وانكفاء على الذات بمرور الزمن.

وتشير المصادر العربية الوسيطة إلى أن صلات عقبة بن نافع بقبائل الملثمين لم تقتصر على مسوفة بل شملت قبائل أخرى من أبرزها قبيلة بني وارث التي ذكرها ابن أبي زرع في معرض حديثه عن جهاد أبي عبد الله محمد ابن تيفاوت في بداية القرن 5هـ/11م ووقوف هذه القبيلة إلى جانبه ومقتله قرب إحدى مدنها الأساسية، فقال: "مدينة تاكلاتين يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث، وهم قوم صالحون على السنة والجماعة وأسلموا على يد عقبة بن نافع أيام فتحه للمغرب"[2]. ومن المعروف أن ديار بني وارث في موريتانيا كانت تمتد من وارن شمالا إلى وسط

---

[1] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 367.

[2] علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 121.

تكانت جنوبا[1]، على أن هناك من يرى أن حملة عقبة شملت قبيلة لمتونة التي كانت من بين أكبر وأقوى التجمعات السكانية في البلاد خلال تلك الفترة، وأن مجموع قبائل الصحراء تجمعت وتحالفت في سبيل الدفاع عن أراضيها وكيانها[2].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من بين القرائن التي تدل على أن عقبة بن نافع قد وصل فعلا إلى بلاد الصحراء والسودان، ما تختزنه الذاكرة الجماعية لسكان تلك المناطق حول علاقته بهم وببلادهم، فقد تداول أجيال سكانها عبر الزمن ذكراه في رواياتهم الشفوية والمكتوبة[3].

وتحتفظ المصادر الصحراوية والسودانية، فضلا عما أوردته المصادر العربية الوسيطة، بذكريات شعوب هذه المنطقة حول عقبة وتعطيه مساحة هامة في تاريخها، وفي هذا الإطار يقول الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار الكنتي في معرض حديثه عن فتوحات عقبة بن نافع إنه هو "الذي فتح الله على يده قطر إفريقية إلى غانة إلى برك الغماد المدعو الآن بزكزك[4]، وخلف ابنه العاقب ببير المدعوة الآن بولاتة وقبره بصحن مسجدها الذي هو بانيه"[5]، ولعل من أبرز مظاهر الصلات التي ربطت هذا القائد بموريتانيا وجود مجموعات قبلية في هذه البلاد ترفع أنسابها إليه، وإن كان أسلاف بعضها قد وصلوا إليها بعد قرون من مقتله قادمين من القيروان عبر مراحل استقرار عديدة[6].

---

[1] Suzanne DAVEAU, « Itinéraire de Tamadalt à Awdaghost selon Al – Bakri » In TEGDAOUST I, Recherches sur Aoudaghost, AMG, 1970, p. 37.

[2] الدكتور حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1957، ص. 61.

[3] F. DELCHAPPELLE, Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, In Hesperis Tamuda, tXI, Rabat, p. 55. 1930.

[4] بكافين معقودتين

[5] سيدي محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، تحقيق أ. د. حماه الله ولد السالم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص. ص. 185 – 186.

[6] نفس المصدر، ص. ص. 174 – 191.

أما المصادر السودانية، فإن بعضها يذهب إلى أن عقبة فتح بلاد السودان وأنه تزوج فيها ورزق بالأبناء، لكنها لا تجزم فيما إذا كان الأمر يتعلق بعقبة بن نافع أو بغيره ممن يحمل اسم عقبة من الصحابة، وفي هذا المعنى كتب محمد بن بلو أن الفلان ينتسبون إلى "عقبة بن ياسر وقيل عقبة بن عامر وقيل عقبة بن نافع [...] فزوجه أمير التورود ابنته بج منغ فولد منها أربعة أولاد [...] ثم تزوجوا وولدوا، فكان ذراريهم الفلان"[1]، بينما حسم بعض أصحاب هذه المصادر أمره، ورفع نسب الفلان إلى عقبة بن نافع مثل ما ذهب إليه موسى كمر من أن "المؤرخين من أهل فوت تور وفوت جلو وماسن إلى هوس متفقون على أن الفلان من ذرية عقبة المستجاب بن نافع"[2].

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول القطع بوصول عقبة بن نافع إلى أراضي موريتانيا أو بلاد السودان الواقعة إلى الجنوب منها، فإن أيا منهم لم يعترض على وصول الحملات العسكرية التي قادها بعض الفاتحين من بينهم أحفاد لهذا القائد إلى هذه البلاد.

ب – في عهد ولاية موسى بن نصير

تمكن موسى بن نصير خلال الفترة الواقعة ما بين 705 – 709م، من بسط نفوذ الدولة الإسلامية على معظم بلاد المغرب بما في ذلك السوس الأقصى، التي ولّى عليها ابنه مروان الذي يعتقد أنه بعث حملات عسكرية ودعاة إلى الملثمين في صحرائهم وأن بعض مجموعاتهم قد جددت اعتناق الإسلام على يد أولئك الموفدين[3]، ولعل ذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله عن

---

[1] محمد بلو بن عثمان فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1996، ص.330.

[2] الشيخ موسى كمر، المجموع النفيس سرا وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية، الجزء الأول، تحقيق وتعليق الناني ولد الحسين، منشورات الزمن، الرباط، 2015، ص. 44.

[3] Tadeuz, LEWICKI, Les Origines de l'Islam dans les tribus berbères du Sahara Occidental : Musa Ibn Nusayr et Ubayd Allah Ibn Alhabhab, In STUDIA ISLAMICA, Vol32, 1970, p p. 203 – 214 .

الملثمين: "ولم يزالوا مستقرين في تلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس"[1]. وإذا كانت المصادر لم تتحدث بشكل صريح ومفصل عن جهود موسى بن نصير وابنه مروان لنشر الإسلام في الأراضي الموريتانية، فإن الأمر يبدو مختلفا في عهد ابن الحبحاب.

ج – في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب

ازدادت كثافة الحملات العسكرية الموجهة من ولاة الدولة الأموية في المغرب إلى القبائل الصنهاجية في الأراضي الموريتانية في عهد عبيد الله بن الحبحاب، فقد أرسل هذا الوالي (بعد توليته على المغرب من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك) حملة عسكرية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لمتابعة فتح البلاد الموريتانية التي اعتبرها ابن عبد الحكم على عادة معظم الكتاب المشارقة في ذلك العهد جزءا من بلاد السوس، وبهذا الصدد يقول مؤرخنا:" وغزا عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهري السوس وأرض السودان، فظفر بهم ظفرا لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب"[2].

ويبين ابن الرقيق أن من ظفر بهم ابن حبيب في حملته هذه، ليسوا سوى بني مسوفة الذين كان جده عقبة قد طاردهم في الصحراء قبل ذلك بعقود من الزمن، فقال في شأن ابن الحبحاب:" وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازيا إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان ولم يقاتله أحد إلا ظهر عليه وأصاب من الذهب والسبي أمرا عظيما ولم يدع في المغرب قبيلة إلا أداخها فملئوا منه رعبا وخوفا [...] وسبى من قبيل من قبائل البربر يقال لهم مسوفة في طريق بلاد السودان [...] ورجع سالما حتى قدم على ابن الحبحاب"[3]. ويتضح من خلال هذه

---

[1] ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص. 371.

[2] ابن عبد الحكم، مصدر سبق ذكره، ص. 54.

[3] أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق د. عبد الله العلي الزيدان ود. عز الدين أحمد موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص. 72.

الشهادة أن الأمر يتعلق بالمجموعات المسوفية التي كانت توجد على التخوم الجنوبية الشرقية للبلاد الموريتانية المحاذية لبلاد السودان وليست فروع هذه القبيلة الموجودة آنذاك في درعة.

ويبدو أن هذه الحملة التي اخترقت الأراضي الموريتانية من الشمال إلى الجنوب قد تركت صدى كبيرا وأثرت في مجريات الحياة في المنطقة، ولعل أبرز تأثير لها هو ما أشار إليه البكري عندما كتب عن مدينة أودغست، فقال:" وهي كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة"[1]، وتشير هذه الشهادة بوضوح إلى أن شيئا ما حصل في غانة بعد وصول العرب إليها، وأن مدينة أودغست لم تعد عاصمة لهذه المملكة منذ حصول ذلك الحدث.

وتوضح الروايات السودانية المدونة خلال القرنين 16 و17 للميلاد جوانب من تلك الأحداث والتغيرات التي نعتقد أنها حصلت في بداية القرن 2هـ/8م، حيث أوردت أن ملوك غانة كانوا منذ تأسيسها من صنهاجة إلى أن ثار عليهم قادة جيوشهم من السوننكه (وعكري) وأسسوا مملكة مستقلة عن سادتهم القدامى اتخذت من قنب (كنبي صالح) عاصمة لها[2].

فإذا كانت الحملة الأولى التي وجهتها الدولة الأموية لهذه المنطقة قد أحجمت عن من مواجهة جيش مملكة غانة، واضطر أفرادها إلى الاستقرار في بلاد السودان وتخلى أحفادهم عن الإسلام لأسباب صمتت عنها المصادر[3]، لكننا نعتقد أنها مرتبطة بالاضطرابات التي تلت مقتل عقبة، فإن حملة حبيب بن أبي عبيدة عبرت البلاد الموريتانية ووصلت بلاد السودان وعادت إلى ابن الحبحاب في المغرب بغنائم وسبايا، ولا شك أنها قد تركت تأثيرات في المنطقة من بينها ما أوردناه مما أشار إلى بعضه البكري فضلا عن المصادر السودانية.

---

[1] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 355.

[2] القاضي الفغ محمود بن الحاج المتوكل كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداس ودلافوس، باريس، 1981، ص.42. [2]

[3] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 367.

ولم تقتصر جهود الدولة الأموية لنشر الإسلام في موريتانيا في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب على حملة حبيب بن أبي عبيدة، بل إن ابن الحبحاب سار بنفسه على خطى قائده حبيب بعد ذلك بثمان سنوات حتى وصل ديار مسوفة وذلك عندما قاد بنفسه جيشه أثناء انتفاضة البربر التي قال عنها ابن خلدون:" ثم انتفض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس وأثخن في البربر وسبى وغنم وانتهى إلى مسوفة فقتل وسبى وداخل البربر منه رعب"[1].

ثم إن ابن الحبحاب ولّى ابنه إسماعيل على السوس الأقصى، ويعتقد لويكي أن إسماعيل قد كثف من تسيير الحملات العسكرية باتجاه الصحراء، وأن من أشهر الحملات التي بعث بها إلى هذه المنطقة تلك التي تولى المشترى بن الأسود قيادتها[2]، وقد تحدث عنها ابن الفقيه نقلا عن مصدر غير معروف حتى الآن، فقال: "قال أبو الخطاب، قال المشترى بن الأسود: غزوت بلاد أنبية عشرين غزاة من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمال يخرج النيل من تحته"[3]. ويتضح بشكل جلي أن بلاد أنبية التي يعنيها ابن الأسود هي نفسها البلاد الموريتانية من أقصى شمالها إلى آخر نقطة فيها إلى الجنوب، فقد حدد ابن الفقيه ما يعنيه ببلاد أنبيه في قوله: "وبلاد أنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة في براري ومفاوز وأهلها أهل لمطة أصحاب الدرق"[4].

وإذا كان المشترى بن الأسود قد تولى لوحده قيادة عشرين حملة موجهة من سوس إلى موريتانيا أنهت كلها توغلها جنوبا عند مصب نهر السنغال، فإننا نعتقد أن إسماعيل بن عبيد الله

---

[1] ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص. 221.

[2] T. LEWICKI, op.cit. p. 204.

[3] أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، بيروت، 1303هـ، ص. 64.

[4] نفس المصدر، ص. 81.

بن الحبحاب لم يغفل المناطق الأخرى من البلاد، خاصة تلك التي استهدفتها حملات سابقة قادها كل من عقبة وحبيب وعبيد الله بن الحبحاب، ركزت على قبيلة مسوفة التي كانت عشائرها تنتشر في الجزء الشرقي من البلاد، إذ لاشك أن غياب مصادر محلية حول هذه الأحداث، واستحالة تغطية المصادر العربية في القرنين 1هـ و2هـ/7م و8م لها كلها بسبب بُعد مؤلفيها عن مسرح الأحداث، من أهم الأسباب التي حرمتنا من الحصول على معلومات تفصيلية حول ما ورد في المصادر العربية الوسيطة بهذا الخصوص فضلا عن معلومات أخرى لم يرد الحديث عنها أصلا في تلك المصادر.

وقد تمكن عبد الرحمن بن حبيب خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية من فرض نفسه واليا على إفريقية، فدخل القيروان سنة 123هـ، ثم إنه وجه جيوشه لبسط نفوذه على المغرب الأقصى فوصلت إلى مدينة إيجلي التي سبق لجده عقبة أن افتتحها، وهي قاعدة السوس خلال ذلك التاريخ[1]، ثم إن عبد الرحمن بعث بحملة إلى ما وراء السوس، وقد دعا أفراد تلك الحملة قبائل الملثمين إلى اعتناق الإسلام[2]، ولعل تلك الحملة هي التي أشار إليها الأزدي الذي نعتقد أنه وقع في التباس أثناء نقله من المصادر فخلط بين أحداث كان بطلها الرئيسي حبيب بن أبي عبيدة وأخرى تتعلق بابنه عبد الرحمن فقال متحدثا عن أحداث سنة 116هـ ما نصه: "وفيها أغزى عبد الله بن الحبحاب عبد الرحمن بن حبيب السوس وأرض السودان فظفر وأصاب ذهبا كثيرا"[3] لكن دور ابن حبيب في نشر الإسلام داخل موريتانيا تميز بوضعه للأسس الكفيلة بنشره بالطرق السلمية في المناطق الواقعة خلف السوس الأقصى ومن ضمنها موريتانيا.

---

1 البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 349.

2 الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، 430 – 515هـ/1038 – 1121م، مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص. 40.

3 الشيخ أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبه، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، 1967، ص.36.

2 . الجهود السلمية

لم يقتصر دور ولاة الدولة الأموية في المغرب على تسيير الحملات العسكرية إلى موريتانيا لنشر الإسلام بين سكانها، بل إن بعضهم اتبع سبلا سلمية لتحقيق هذا الغرض، وقد ساهمت الحملات العسكرية نفسها في التمهيد لذلك، فقد أدت إلى استكشاف الطرق المؤدية إلى مختلف مناطق البلاد والتعرف على أهم التجمعات السكانية فيها.

فقد سلكت الحملة الأموية الأولى الطريق الشرقي من طرق المحور الغربي للتجارة عبر الصحراء، وينطلق هذا الطريق من تافلالت (سجلماسة) ويخترق الصحراء إلى أن يصل عاصمة غانة في أقصى الجنوب الشرقي الموريتاني، بينما سلكت الحملات التي قادها المشترى بن الأسود الطريق الغربي من المحور المذكور، ويعرف هذا الطريق لدى المهتمين بالطرق التجارية الصحراوية باسم الطريق الساحلي، وينطلق من نول لمطة في السوس الأقصى ويسير بمحاذاة الساحل الأطلسي إلى أن يصل مملحة آوليل بالقرب من مصب نهر السنغال؛ وتتفرع من هنالك مسالك متجهة إلى ممالك ومدن حوض نهر السنغال مثل تكرور وسلى وغيرهما، أما حملة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، فقد سلكت الطريق الأوسط من طرق المحور الغربي للتجارة الصحراوية[1]، وكان منطلقه من درعة (تامدلت) وينتهي في أودغست ومنها تتفرع طرق أخرى إلى ممالك ومدن حوض نهر النيجر.

ومن المعروف أن كل واحدة من الطرق المذكورة تخترق ديار إحدى المكونات القبلية الثلاث الأساسية من سكان موريتانيا خلال العصر الوسيط، فقد كان الطريق الساحلي يعبر ديار كدالة من الشمال إلى الجنوب، بينما كان الطريق الأوسط يعبر أراضي لمتونة، في حين كان الطريق الشرقي يخترق مرابع مسوفة.

[1] R. MAUNY, Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie, Mémoire de l'IFAN n0 61, Dakar, 1961, p. 128.

ونعتقد أن استخدام الحملات العسكرية لمختلف الطرق الأساسية التي كانت تعبر البلاد وتربطها بمحيطها الإقليمي، قد أدى إلى ذيوع الأخبار المرتبطة بظهور الإسلام، وأن ذلك دفع بعض سكان البلاد إلى استقصاء المعلومات حول الدين الجديد والتعرف . ما أمكنهم ذلك . عليه من خلال الاحتكاك بأفراد الحملات العسكرية التي وصلت إلى بلادهم أو عن طريق أسفار بعض الأفراد إلى الشمال، فانتهى المطاف بجماعات منهم إلى اعتناق الإسلام.

وانطلاقا مما سبق، فإن الحملات العسكرية قد ساهمت، بالإضافة إلى دورها المباشر في دخول بعض سكان البلاد في الإسلام، في المجهود الإعلامي حول ظهور هذا الدين ولفتت انتباه سكان هذه المناطق النائية المنقطع أغلبهم بين الكثبان الرملية عما يجري في العالم عصرئذ، وأشعرتهم أن القوة التي تقف وراء هذا الدين وتلتزم بتبليغه إلى مختلف مناطق العالم المعروف وقتها قد أضحت مرابطة على حدودهم الشمالية وأن لديها من الإمكانات اللوجستية والقدرات العسكرية ما يسمح لها بتعكير حياتهم إن هم لم يستجيبوا لما تدعوهم إليه.

ولم يقف قادة الحملات والمخططون لها من ولاة بني أمية في المغرب وممثليهم في السوس الأقصى عند هذا الحد، بل إنهم حفروا الآبار على طول الطرق التي سلكتها قواتهم بهدف تذليل مصاعب عبور الصحراء إن هم قرروا إعادة الكرة لعملياتهم، ولكنهم أيضا كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى العمل على تكثيف الصلات بين سكان هذه البلاد الصحراوية وسكان بلاد المغرب الذين دخل معظمهم وقتها في الإسلام، كما كانوا يهدفون أيضا إلى تمهيد تلك الطرق لقوافل التجار العرب المتعطشين لمباشرة التبادل التجاري مع سكان الصحراء وبلاد السودان بغرض استفادة تلك المناطق التي يستقرون فيها بشكل مؤقت أو دائم من أي دور لهم في نشر الإسلام بصفة مباشرة أو عن طريق الاحتكاك والتأثير غير المباشر.

ومن بين أبرز الآبار التي تم حفرها في البلاد، تلك التي حفرت على طول الطريق الشرقي المار بأراضي مسوفة، وقد وصف البكري إحداها، فقال:" البئر المسماة تزامت، بئر معينة غير عذبة

وهي إلى الملوحة أقرب، قد أنبطت في حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بني أمية صنعتها"[1].

وقد تفطن عبد الرحمن بن حبيب إلى أهمية توفير الماء على طول الطرق التجارية بين المغرب وموريتانيا وبلاد السودان، في سبيل الدفع بالعلاقات التجارية والثقافية بين ضفتي الصحراء، فعمل على حفر مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط بين تامدلت وأودغست، من بينها مثلا بئر الجمالين والبئر الواقعة جنوب تازقي وبئر وينطونان[2]، وغيرها من الآبار التي لا شك أنها حفرت على امتداد هذا الطريق ولم تذكرها المصادر.

ويعتقد بعض الباحثين، اعتمادا على روايات محلية، أن مدينة آبير التي تقع أطلالها بالقرب من مدينة شنقيط قد تأسست حول أحد الآبار التي أمر عبد الرحمن بن حبيب بحفرها على طول هذا الطريق، وأن كلمة آبير ليست سوى تصغير لكلمة بئر مسبوقة بأداة التعرف بالأمازيغية[3]، ويمكننا تفسر اهتمام عبد الرحمن بن حبيب الخاص بالصحراء وتمهيده لطرقها بما ذهب إليه المؤرخ الموريتاني المشهور المختار ولد حامد من أنها أصبحت تابعة لسلطة الفهريين منذ تولى هذا القائد أمر المغرب عام 127هـ وأنها بقيت كذلك حتى نهاية أمرهم بسبب الصراع الذي دار بينهم وأدى إلى مقتل عبد الرحمن بن حبيب على يدي أخوية إلياس وعبد الوارث عام 138هـ ثم مقتل إلياس عام 140هـ، بعدها أستقل الملثمون بكيانهم الخاص[4].

وقد آتت جهود حفر الآبار على طول الطرق أكلها بشكل سريع، حيث تدفقت القوافل عبر الطرق المذكورة فاستقر التجار المسلمون والدعاة في الحواضر والأرياف الصحراوية والسودانية منذ بداية

---

1 البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 350.

2 البكري مصدر سبق ذكره، ص. ص. 342 – 343.

3 أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا الوسيطة: أودغست غانة، أزوكي، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الآثار والتراث، جامعة تونس الأولى، 2000، ص. ص. 188 – 192.

4 المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص. ص. 22 – 23.

استقرار الفاتحين في المغرب، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فقال: "ولما فتحت إفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب، فلم يجدوا فيه أعظم من ملوك غانة"[1].

وبصفة عامة، فإن جهود الدولة الأموية لنشر الإسلام في موريتانيا، على الرغم من أهميتها لم تعط نتائج مباشرة، على غرار ما أدت إليه فتوحاتها في آسيا وشمال إفريقيا بسبب ما أشرنا إيه من صعوبات مرتبطة بطبيعة الأراضي الموريتانية وصعوبة الوصول إليها وقلة سكانها وتشتتهم في أنحائها، في الوقت الذي كان الولاة يواجهون ثورات البربر في شمال إفريقيا ويعدون لفتح الأندلس، لكن تلك الجهود لم تذهب سدى وإنما فتحت منافذ دخل من خلالها الإسلام تدريجيا إلى هذه البلاد وإلى مناطق أخرى من غرب إفريقيا.

1 ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص. 472.